الأصل السابع

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾

في بيان أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية، وبيان وظيفة العقل في باب الصفات

نهى الله عباده عن القول عليه بغير علم، أو الخوض فيما لا سبيل لهم للعلم به، في غير ما موضعٍ من كتابه. ومن شواهد ذلك:

أولاً: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [١٦٨، ١٦٩].

ثانياً: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [٣٣].

ثالثاً: قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [٣٦].

سحب خاص z:/MKT2015/Jawzi/Mhkkmat/Usul-Kuranya.3d | الأصول القرآنية/ pdf

ونعى على المشركين، والزائغين، اتباع الظن، والمتشابه، في غير ما موضع من كتابه. ومن شواهد ذلك:

أولاً: قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [١٤٨].

ثانياً: قال تعالى في سورة النجم: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [٢٨].

ثالثاً: قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [٧].

وهذا أصل عظيم، وركن شديد، في كل باب، وفي باب الأسماء والصفات، بصفة خاصة، وذلك لأن المقام خطير، والزلل فيه ليس كزللٍ في غيره؛ فأسماء الله وصفاته توقيفية، يجب الوقوف فيها على موارد النصوص، وحسب، دون زيادة أو نقصان، فلا يستقل العقل بإثباتها. قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ. لا يتجاوز القرآن والحديث»[(١)].

وقد جمع الله تعالى، فيما وصف، وسمَّى به نفسه، بين النفي والإثبات، كما في سورة الإخلاص، وآية الكرسي، وغيرهما؛ فالواجب في الإثبات أمران:

أحدهما: إثبات ما أثبت الرب لنفسه، أو أثبته له نبيه ﷺ.

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٨٢).

سحب خاص zz/MKT2015/Jawzi/Mhkkmat/Usul-Kuraniya.3d | الأصول القرآنية/ pdf

الثاني: الاحتراز من التعطيل، والتحريف، ومن التمثيل، والتكييف.

والواجب في النفي: أمران:

أحدهما: نفي ما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه نبيه ﷺ.

ثانيهما: إثبات كمال ضد الصفة المنفية.

وأما ما لم يرد فيه نفي، ولا إثبات، بل كان مسكوتاً عنه، مما أحدثه المتأخرون من الألفاظ؛ كلفظ: (الحيز) و(الجهة) و(الجسم) و(الحركة)، ونحوها، فالواجب فيه أمران:

أحدهما: **التوقف في لفظه**: فلا يثبت، ولا ينفى، لما تقدم من أن أسماء الله وصفاته توقيفية، لا يُتجاوز فيها موارد النصوص. فمن أثبت وصفاً، طولِب بالدليل. ومن نفاه، طولب بالدليل أيضاً، فيلزم جانب الأدب، ويحترم جناب الربوبية. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القول على الله بلا علم؛ في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، ووصفه بضد ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، فهو أشد شيء مناقضةً، ومنافاةً لكمال من له الخلق والأمر، وقدح في نفس الربوبية، وخصائص الرب، فإن صدر ذلك عن علم، فهو عناد أقبح من الشرك، وأعظم إثماً عند الله. فإن المشرك المقِرّ بصفات الرب، خير من المعطل، الجاحد لصفات كماله»[(١)].

(١) الداء والدواء (٣٢٩ ـ ٣٣٠).

سحب خاص pdf/الأصول القرآنية/ | z:/MKT2015/Jawzi/Mhkkmat/Usul-Kuranya.3d

الثاني: **الاستفصال عن معناه**: فإن أراد معنىً صحيحاً؛ قُبل، وإن أراد معنىً فاسداً؛ رد. وذلك أن من الناس من يعبر عن المعاني الصحيحة بالألفاظ المحدثة؛ فيُرد اللفظ، ويُقر المعنى. ومن الناس من يجمع بين اللفظ المبتدع، والمعنى الفاسد؛ فيرد هذا وهذا. مثال ذلك، لفظ (الجسم): فإنه لم يرد في الكتاب، والسُّنَّة بنفي، ولا إثبات. فمقتضى الأدب ألَّا يخبر به المؤمن عن ربه، نفياً، ولا إثباتاً، بل يتوقف فيه، ويمسك. لكن يستفصل عن مراد من أثبته، أو نفاه:

- فإن أراد إثبات ذاتٍ لا تشبه الذوات، تقوم بها صفات؛ كالوجه، واليدين، والسمع، والبصر، فهذا معنىً صحيح، ثابت لله، لا يجوز نفيه، لكن دون التعبير بلفظ (الجسم).

- وإن أراد به جسماً كأجسام المخلوقين؛ يتركب من أبعاضٍ، وأجزاء، يفتقر بعضها إلى بعض، فهذا معنىً فاسد، يُنزه الله عنه، فيبطل اللفظ، والمعنى.

ولا ريب أن العقل من أعظم أدوات العلم والإدراك، إلا إنه لا يستقل بإثبات ما ينبغي لله، أو ينفى عنه، بل هو تابع للنقل، مستنير بنور الوحي. بخلاف طريقة المتكلمين، الذين جعلوا العقل حاكماً على النقل، وسيداً له؛ فما أثبته العقل، أثبتوه، ولو خالف الكتاب والسُّنَّة! وما نفاه العقل نفوه، ولو دل عليه الكتاب والسُّنَّة!

سحب خاص pdf/الأصول القرآنية/ | z:/MKT2015/Jawzi/Mhkkmat/Usul-Kuranya.3d

قال شيخ الإسلام، ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال، وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم، والعمل؛ لكنه ليس مستقلًّا بذلك؛ بل هو غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر، التي في العين؛ فإن اتصل به نور الإيمان، والقرآن، كان كنور العين، إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه، لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها... والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دَرْكِهِ، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه، لكن المسرفون فيه، قضوا بوجوب أشياء، وجوازها، وامتناعها، لحجج عقلية، بزعمهم، اعتقدوها حقّاً، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات، وما جاءت به»[(١)].

وللعقل السليم، في باب الأسماء والصفات وظائف شريفة تليق به، فمنها:

أولاً: فهم معانيها: فإن الله تعالى خاطب عباده بلسان عربي مبين، ليعقلوا مراده، ويفهموا خطابه، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ١١٣]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ٢٨١).

سحب خاص z:/MKT2015/Jawzi/Mhkkmat/Usul-Kuranya.3d | الأصول القرآنية/pdf

عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]؛ فعربية القرآن، سبب لحصول فهم معانيه، ولم يزل علماء الملة؛ من أهل التفسير، واللغة، والبيان، يشتغلون ببيان مراد الله تعالى، لا يستثنون شيئاً مما أنزل.

ثانياً: التفكر، والتدبر، والنظر في آثارها، ومقتضياتها: فقد أمر الله عباده بتدبر كتابه، وجعله الغاية من إنزاله، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]. وهذا قدر زائد على مجرد العلم بالمعنى، فإنه يستدعي التأمل في ملكوت السماوات والأرض، والنفس والآفاق، لكونها آثار أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، كما قال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٠].

ثالثاً: استعمال الأقيسة العقلية الصريحة، في تأييد الأدلة النقلية الصحيحة: فإن الله أنزل الكتاب بالحق والميزان، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ [الشورى: ١٧]، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنزل الميزان، وهو العدل، ليقضي بين الناس بالإنصاف» وروى ذلك، بسنده، عن مجاهد، وقتادة[(١)]. وحقيقة العدل: التسوية بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات. ومن أمثلة الأقيسة الصحيحة:

(١) جامع البيان (٢٥/ ٢٠).

سحب خاص z:/MKT2015/lawzi/Mhkkmat/Usul-Kuraniya.3d | الأصول القرآنية/ /pdf

١ ـ الاستدلال على توحيد الألوهية، بالإقرار بتوحيد الربوبية، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

٢ ـ إثبات الكمال باستعمال قياس الأولى، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠]. فهو سبحانه، منزه عن قياس التمثيل، وقياس الشمول. أما قياس الأولى فيفيد أمراً يختص به الرب، وإن كان جنسه مشترك في الأذهان. وقد جاء لفظ (أعلم)، بصيغة أفعل التفضيل، في حق الله تعالى، في نحو خمسين موضعاً، في القرآن.

٣ ـ نفي الصفة إثبات لنقيضها قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الطريقة، هي أعظم الطرق في إثبات الصفات، وكان السلف يحتجون بها، ويثبتون أن من عبد إلٰهاً، لا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، فقد عبد ربّاً، ناقصاً، معيباً، مؤوفاً»[(١)].

رابعاً: إبطال الأقيسة العقلية الفاسدة، التي تعارض الأدلة النقلية الثابتة: فقد استعمل القرآن العقل لإبطال عقائد المشركين. ومن شواهد ذلك:

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٤٠).

z:/MKT2015/Jawzi/Mhkkmat/Usul-Kuranya.3d | الأصول القرآنية/pdf/ سحب خامس

١ ـ إبطال نظرية الصدفة، ونسبة الخلق إلى الطبيعة، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٦٠].

٢ ـ إبطال الشرك في الربوبية، والألوهية: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

٣ ـ إبطال التمثيل بين الخالق والمخلوق: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

واستطال المتكلمون في باب الصفات، بمقدمات فاسدة، للوصول إلى نتائج باطلة، زاعمين أن ذلك مقتضى العقل، ولكن العقل الصحيح يعود عليها بالنقض. ومن ذلك:

١ ـ زعمهم أن إثبات الصفات يستلزم تعدد القدماء: بناءً على أن صفات الله غير الله، فإثباتها إثبات لقديم يشاركه في القدم! وهذه نتيجة باطلة، مبنية على أصل فاسد؛ وذلك أن الصفات المضافة إلى الله، ليست أعياناً منفصلةً عن الذات، بل هي قائمة بها، فلا يلزم من إثباتها تعدد القدماء.

٢ ـ زعمهم أن إثبات الصفات يستلزم التجسيم، بدعوى أن الصفات لا تقوم إلا بأجسام، والأجسام متماثلة! فالمقدمتان باطلتان؛ فالصفات تقوم بالأجسام، وغير الأجسام، كما يقال: ليل طويل، ونهار بارد. كما أن الأجسام متغايرة في صفاتها؛ صغراً، وكبراً، وخفةً، وكثافة، وغير ذلك.

سحب خاص z:/MKT2015/lawzi/Mhkkmat/Usul-Kuranya.3d | الأصول القرآنية/ pdf/

٣ ـ زعمهم أن إثبات الصفات الفعلية، يستلزم الحدوث: فيتذرعون بذلك إلى نفي الاستواء، والنزول، والمجيء، وغير ذلك من صفات الأفعال الاختيارية، التي أثبتها الله لنفسه، بدعوى تنزيه الله عن الحوادث! وهذا تلازم ليس بلازم. فإن الله تعالى لم يزل فعالاً، ونفي ذلك تنقص له، ووصف له بضده؛ من الجمود، والعجز. ويقال: إن جنس الفعل قديم، وآحاده، وأفراده حادثة، حسب ما تقتضيه حكمته؛ ككلامه سبحانه، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ [الشعراء: ٥]. وسيأتي لذلك مزيد بيان في الأصل العاشر.

سحب خاص pdf/الأصول القرآنية/ | z:/MKT2015/Jawzi/Mhkkmat/Usul-Kuranya.3d